

(١٣)

الصُّلْحُ الْفَتْحُ..

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح: ١-٣).

يخبر ربنا - تعالى جَدُّه - في هذه الآيات عن صلح
الحديبية ، ويسميه فتحاً مبيناً لأنه كان بعد أن ظهر
رسول الله ﷺ ، وأصحابه على المشركين حتى سألوه الصلح،
بعد أن كانوا يأبون ذلك ويستكبرون عنه . وكان هذا الصلح
هو السبب في فتح مكة بعد قليل ودخول الناس في دين الله
أفواجاً .

ولذلك روى البخاري عن أنس في هذه الآية «الفتح
صلح الحديبية»^(١) . وروى عن البراء بن عازب أن الصحابة
كانوا يعدون الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية^(٢) .

(١) بخاري عن أنس ، حديث رقم ٤١٧٢ و ٤٨٣٤ .

(٢) البخاري ، حديث رقم ٤١٥٠ .

ومن أجمل ما قيل في ذلك قول الزهري: «لم يكن في الإسلام فتح قبل الحديبية هو أعظم منه ... فلما أمن الناس كلهم ، كلم بعضهم بعضاً ... ولم يَكَلِّمْ أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا بادر بالدخول فيه . فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر» . قال ابن هشام : «ويدل على ذلك أنه ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة [أو ألف وخمسمائة] ثم خرج بعد سنتين إلى الفتح في عشرة آلاف»^(١).

فذل المشركون من حيث أرادوا العزة ، وقهروا من حيث أرادوا الغلبة !
فكيف عُقِدَ هذا الصلح الذي سماه القرآن الكريم فتحاً مبيناً ؟

عاد سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ ، في مهمة محددة هي أن يصالح المشركون المسلمين على أن يرجع المسلمون عن مكة عامهم ذاك ، ويعودوا في العام الذي بعده فيعتمروا ويقيموا بمكة ثلاثة أيام ثم ينصرفوا من حيث أتوا . ولم تزل قريش تكرر لسهيل قولها القديم : «والله لا تتحدث العرب أن محمداً دخل علينا عنوة» !

(١) فتح الباري ، ج ٧ ص ٤٤١ .

فأتى سهيل رسول الله ﷺ ، فجلس على ركبتيه مواجهاً رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأطال الكلام ، وارتفعت أصواتهما وانخفضت ، حتى قال عباد بن بشر - رضي الله عنه - لسهيل : « اخفض صوتك عند رسول الله » ، وجرى القول بين سهيل وبين رسول الله حتى اتفقا على أن تكون هدنة مدتها عشر سنين يأمن فيها الناس بعضهم بعضاً ؛ وأن يرجع رسول الله ﷺ هذا العام ثم يعود العام المقبل ، فتخلي قريش بينه وبين مكة ثلاثة أيام ؛ وألا يدخل مكة إلا بالسيوف في قريها دون غيرها من السلاح ؛ وأنه من أتى محمداً بغير إذن وليه - وإن كان على دين محمد - رده محمد إلى وليه ؛ ومن أتى قريشاً ممن كان قد اتبع محمداً فإنها لا ترده إلى محمد ؛ وأن من أراد من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده (أي يحالفه) دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ؛ فتوالت خزاعة وقالوا : « نحن في عقد محمد وعهده » ، وتوالت بنو بكر فقالوا : « نحن في عقد قريش وعهدهم » !

فلما لم يبق إلا كتابة هذا الصلح - والمسلمون كارهون - وثب عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « يا رسول الله أأست نبي الله حقاً ؟ » قال : « بلى » . قال عمر : « ألسنا

على الحق وهم على الباطل؟» قال : « بلى » . قال عمر :
« أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ » قال : « بلى » .
قال عمر : « فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ونرجع ولم يحكم
الله بيننا وبينهم ؟ » فقال رسول الله ﷺ ، « إني عبد الله ورسوله ،
ولست أعصيه ، ولن يضيعني وهو ناصري » . أي إن الأمر فيما
جرى الاتفاق عليه لم يكن من عند رسول الله ﷺ ، وإنما كان
وحياً يؤمر به النبي فينفذه . ولذلك لم يشاور أصحابه في هذا
الشأن كله منذ خلأت القصواء - أو هكذا قالوا - إلى أن جرى
الاتفاق بينه وبين سهيل بن عمرو . هذا وهو - ﷺ - الذي لم
يكن أحد أكثر مشورة منه لأصحابه . فتبين من تركه المشاورة
هنا أننا أمام وحي يوحى لا أمام رأي بشري تطلب له
المشورة . ولم يقنع ذلك عمر بن الخطاب ، فعاد يقول
للرسول ﷺ ، « أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف
حقاً ؟ » قال : « بلى » ، فأخبرتك أنك تأتية العام ؟ قال :
« لا » ، قال : « فإنك آتية ومطوف به » .

فذهب عمر إلى أبي بكر فقال له مثل مقالته لرسول الله ﷺ ،
وهو متغيظ لا يصبر . فكان جواب أبي بكر كجواب النبي ﷺ
سواء بسواء^(١) . قال عمر عن نفسه : « والله ما شككت قط منذ

(١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، سبق تخريجه .

أسلمت إلا يومئذ» ، وجعل يرد على رسول الله الكلام ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ، يقول تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك ؛ قال عمر : « ف جعلت أتعوذ من الشيطان حياءً فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم » .

ثم كان عمر إذا حكى هذه الواقعة يقول : « اتهموا الرأي على الدين (أي لا تقولوا برأيكم في دينكم) ، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، برأيي ، وما ألوت الحق » (أي لم أكن مقصراً في طلبه) ، قال : فرضي رسول الله ولم أرض حتى قال يا عمر : « تراني رضيت وتأبى » قال عمر : « فما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق ، من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتي رجوت أن يكون خيراً » (أي حتى غلب على ظني أنني كفرت عن ذاك الصنيع) !^(١)

رحم الله عمر. لقد كان في الحق جريئاً ، وفي الرواية عن نفسه ، فيما أصاب وأخطأ ، ناصحاً أميناً ، فرضي الله عنه وأرضاه كما نصح الله ورسوله ودينه وأمته .

* * *

(١) محمد بن يوسف الصالحى الشامى ، السابق ، ص ٨٧ .